لغة عائشة

- رضي الله عنها -

دراية وعناية

التعامل مع اللغة العربية الفصحى يحتاج إلى دراية بها، وشعور بأهميتها، وذوقٍ رفيع يمكِّن صاحبه من معرفة إيحاءاتها ومراميها، وظِلال كلماتها، وأَبعاد أساليبها، وعمق معانيها.

ولا يتــأتَّى ذلك إلا لأصــحــاب المواهب المــتــازة التي تمكِّن أصحابها من الإبحار في محيط اللغة الكبير.

وهنا يتَّضح للمتـابع الفـرق بين الأدباء والعلمـاء فـي طريقـة أدائهم اللغوية، وتركيبهم الأسلوبي، واختيارهم للعبارات الأنسب في الموضوع الذي يطرحونه.

وحَسْبُك بصاحبة الحرير الأخضر في هذا الجانب قدرة وإبداعاً.

واللغة عندها - رضي الله عنها - مرتبطة بالقرآن الكريم ارتباطاً قوياً، فهو الذي هذَّبها وارتقى بها، وصاغها صياغةً معجزة، وأصبح مرجعها الأوَّل، وحصنها الحصين، وجعل لها رونقاً وبهاءً زادت به جَوْدةً وجمالاً.

ولذلك عُنيت - صاحبة الحرير الأخضر - بالمفردة القرآنية

عناية كبيرة، وحرصت على استخدامها، وحثّتْ على ذلك، ونبَّهتْ في بعض المواقف إليه.

أخرج الإمام أحمد في مسنده حديثاً عن يزيد بن بابنوس قال فيه: «ذهبت أنا وصاحب لي إلى عائشة، فاستأذنَّا عليها، فألْقَتْ لنا وسادةً وجذبت إليها الحجاب فقال صاحبي: يا أم المؤمنين، ما تقولين في العراك؟، قالت: وما العراك؟؛ وضربْتُ منكبَ صاحبي، فقالت: مَهْ آذيتَ أخاك، ثم قالت: ما العراك؟، المحيض؟، قولوا ما قال الله تعالى: "المحيض"»[1].

وكأني بأم المؤمنين تنبِّه السائل في الخبر السابق إلى مسألتين: أُولاهما، استخدام كلمة غير شائعة ولا معروفة عند معظم المسلمين وهي كلمة (العِراك) بمعنى المحيض، وثانيتهما، استخدام غير المفردة القرآنية وهي لا ترضى بذلك، وترى أنه تفريط غير مقبول في كنز اللغة العربية الفصحى الذي لا ينتهي ألا وهو (القرآن الكريم).

ولهذا قالت موجِّهة المتحدث: «قولوا ما قال الله تعالى».

(١) مسند الإمام أحمد: ٢١٦/٦.

توجيهٌ عائشيّ

ينقل الزركشي في كتابه الإجابة «أنَّ عائشة - رضي الله عنها - قالت لابن أبي السائب أشهر قاصٍّ بالمدينة»

ثلاثاً لتبايعَنِّي عليها أو لأُناجزنَّك، فقال: ما هنَّ؟. بل أنا أبايعكِ يا أم المؤمنين، قالت: اجتنب السَّجعَ من الدعاء، فإني عهدت رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون ذلك، وقُصَّ على الناس في كلِّ جمعةٍ مرَّةً، فإنْ أَبَيْتَ فاثنتين، فإنْ أَبَيْتَ فثلاثاً، ولا تُمِلَّ الناسَ هذا الكتابَ الكريم، ولا أُلْفَيَنَّكَ تأتي القومَ وهم في حديثٍ من حديثهم فتقطع عليهم حديثهم، ولكنْ اتركهم، فإنْ جرؤوك عليه وأمروك به فحدِّثهم»[1].

هذا توجيهٌ عائشيٌّ عظيم لرجل يتَصدَّى لوعظ الناس وإرشادهم، فيه من الوعي اللُّغوي ما يدلُّ على طول باع صاحبة الحرير الأخضر في العلم باللغة ومزايا أساليبها، وفيه من الفقه ما يدلُّ على رسوخ قدمها في العلم بكتاب الله وسنة الرسول ﷺ.

وفي هذا التوجيه العائشيّ دليلٌ كبير على حسن انتقاء الجمل والكلمات الملائمة للموضوع وللموقف، وهو ما يحقِّق بجلاءٍ ما يُعرَف عند البلاغيين بـ «مراعاة مقتضى الحال».

---

(١) الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة للزركشي.

يروي بن الجوزي في كتابه صفة الصفوة أنَّ معاوية بن أبي سفيان سأل زياد بن أبيه: أي الناس أبلغ؟، قال: إذا عَزَمْتَ عليَّ فعائشة، فقال معاوية: ما فتحتُ باباً قط تريد أنْ تُغلقه إلا أغلقتَه، ولا أغلقت باباً قط تريد أن تفتحه إلا فَتَحْتَه»[1].

هذا ما يقوله (زياد)، ذو المكانة العالية في البلاغة والبيان، وصاحب الخطبة البتراء التي تُصنَّف في مقدمة خطب العرب، وهي شهادة يؤيدها - أيضاً - معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وبذلك نرى ما يكاد يكون إجماعاً من أهل البلاغة والفصاحة على هذه المنزلة الكبيرة لصاحبة الحرير الأخضر - في مجالات اللغة العربية المختلفة.

ولا شك أن هذه المقدرة اللغوية والبيانية من العوامل المهمة التي جعلت عائشة قادرة على النقد والتوجيه والاستدراك في كثير من الآراء والأحكام الفقهية وغيرها على أصحاب رسول الله ﷺ، وجعلت الصحابة يعودون إلى رأيها في مسائل كثيرة كما سنبين فيما بعد - إن شاء الله-.

(١) صفة الصفوة: